هذا هو الفيلم الرابع والخمسون لملك الرعب على شاشة السينما الفريد هتشكوك . والفيلم يحكى قصة الحياة الغريبة التى عاشها أكبر جاسوس سوفيتى فى فترة ما بعد الحرب . وهو الجاسوس اليهودى جورج بليك . ولابد أن يكون قد دوخ المخابرات البريطانية . فقد كانت حياته مثيرة وكان أذكى من أن يقع فى قبضة المخابرات . وأخيراً وبعد رحلة طويلة من المطاردات المستمرة ظهر فى الاتحاد السوفيتى .

جاسوس سوفيتى يهودى فى القاهرة

● جورج بليك سلطة بدون مجد . . .

زهيرة البيلى

● والغريب فى قصة بليك أنه لم يتجسس من أجل المال ولا النساء ولا حتى الشرف . وقد اختفى تماماً الدافع وراء ممارسته للتجسس حتى ظهرت جريدة بريطانية منذ أسابيع قليلة تحاول كشف الستار عن حياته ودوافعها . لقد وضع كاتب القصة جون لوزير أصابعه على أكثر من مفتاح فى شخصية الجاسوس الكبير . وأوضح الأسرار التى حاولت المخابرات البريطانية كشفها ولكنها فشلت فى هذه المهمة .

وقصة الجاسوس جورج بليك تبدأ من نهايتها فى إحدى قاعات المحكمة الإنجليزية العتيقة أولد بيلى حيث استمع إلى قرار الاتهام الذى لم تستغرق تلاوته أكثر من ٥٣ دقيقة حكم عليه بعده بالسجن ٤٢ سنة مع الحبس الانفرادى . وكانت التهمة الموجهة إليه هى الخيانة العظمى للبلاد وللملكة . وعندما سئل عن الدافع للخيانة قال ببساطة : لا شىء !

وداخل الزنزانة رقم ٨ بالقسم الرابع بالدور الثانى بسجن نورم ورد كان على جورج بليك (٣٩ سنة) أن يمضى سنوات سجنه حتى سنة ٢٠٠٦ وكان المفروض أن يغادر هذه الزنزانة وعمره ٨١ سنة على الأقل . ولكن شيئاً مثيراً قد حدث . وتغيرت الصورة بعد ذلك .

المنظر الآن فى منزل صغير بأحد أحياء لندن الهادئة وقد جلس صاحب البيت يرتدى الروب وإلى جواره المدفأة وكان التاريخ هو السبت ٢٢ أكتوبر ١٩٦٦ . وعلى شاشة التليفزيون كان المذيع يردد بياناً عن هروب الجاسوس الخطير جورج بليك رغم الحراسة المشددة .

وبعد سماع البيان ضحك صاحب البيت وهو يفرد جسمه على الكرسى المريح . فقد كان يعرف أسراراً كثيرة عن هروب الجاسوس تجعل منه مغامرة مثيرة . فقد كان هو نفسه الجاسوس جورج بليك . أما كيف هرب من السجن . فقد أثبتت التحريات أن بليك قد استخدم ١٣ ابرة تريكو فى فك القضبان وأنه قفز من ارتفاع ٢٠ متراً . . كيف ؟ لا أحد يعرف على وجه التحديد .

● وهنا كان لابد من إعادة فتح ملفات هذا الجاسوس . ومعرفة ماضيه بكل تفاصيله والبلاد التى زارها . والأشخاص الذين اتصل بهم . وسافر رجال المخابرات والمحققون إلى معظم عواصم العالم من القاهرة إلى روتردام ومن بيروت إلى برلين وبلا فائدة وبرغم الحصار الشديد فإن جورج بليك وصل إلى موسكو .

وكانت أول رسالة بعث بها إلى أمه من القاهرة . كان والد بليك تاجراً ، عمل بالقاهرة . وكانت القاهرة فى ذلك الوقت هى مأوى الجاسوس الشيوعى اليهودى هنرى كوربيل الذى لقب بشيطان التاريخ ، والذى تسلط على مختلف الاتجاهات والأفكار فى مصر فى الفترة من سنة ٣٠ وحتى الخمسين . وضعت كل أجهزة المخابرات وأقسام المعلومات ملفات « بليك » مع « كوربيل » . . وقد تتلمذ على هنرى كوربيل عدد كبير من الشيوعيين الخونة فى مصر . .

فى محله التجارى بروتردام عام ١٩٣٦ توفى رجل فى الخامسة والأربعين من عمره وبعد أن كتب وصية لأخته التى تعيش بالقاهرة . كان أليبر بيار ابن تاجر يهودى ، يحمل الجنسية الانجليزية وله ١٤ ابناً وقبل أن يموت « ألبير » عهد بابنه « جورج » إلى شقيقته الثرية التى تعيش بالقاهرة والمتزوجة من « دانييل كوربيل » وهو صاحب بنك . وكان « ألبير » لا يعلم أنه عندما يبعث بابنه إلى القاهرة ، فإنما يبعثه إلى مغامرة فريدة من نوعها وأشد خطورة وهلاكاً من حياته نفسها .

كانت القاهرة فى عام ١٩٣٦ فى صبيحة استقلالها ، عندما تولى الملك فاروق الحكم وهو ناصر . فلم تكن له أية سلطات ، ومن خلف الكواليس حكم الانجليز . وجاء « جورج بيار » أو جورج بليك كما أسمته أمه إلى القاهرة وهو فى الرابعة عشرة من عمره حيث التحق بمدرسة انجليزية . وكانت له غرفة أنيقة مع أولاد عمته . اختلط « جورج » بابن عمته « هنرى » الذى كان يستقبل فى قصره الأنيق الذى يطل على النيل بعض المعادين للفاشية من الايطاليين ومجموعات من الشبان المصريين الموالين للجمهورية الأسبانية . وبعض الموظفين بنادى السكة الحديد الذين أصبحوا فيما بعد من كبار الناصريين . وفى نفس هذا الوقت كان « هنرى » على اتصال وثيق بروسيا التى لم يكن لها وجود بعد فى مصر . ولكن من المحتم أنه كان يوجد تحت أسماء يوجوسلافية وتركية بعض العملاء مثل عبد الرحمن سلطانوف مندوب المخابرات السوفيتية الذى لم يظهر رسمياً بالقاهرة إلا فى عام ١٩٤٦ .

أما هنرى كوربيل فلم يكن نشاطه يتلقى أجهزة الأمن البريطانية . إلا أنه فعل ما هو أخطر وذلك بأن جذب ابن خاله « جورج » الذى يصغره بثانى سنوات وقاد معه فى مقابلاته فى مقاهى القاهرة الحزينة حيث كانت تتجمع مجموعات اليساريين ، ولم ترد هذه التحركات والتنقلات بملفات « جورج بليك » . هذا بالرغم من أنه ذكر لأمه « أن هذه الفترة كانت أهم فترة فى حياته » .

ولو تصفحت المخابرات البريطانية سجل تلك العائلة لعرف المحققون متى ومن كان وراء تجنيد « جورج بليك » فلم تحدث له عملية غسيل المخ فى ساڤول أو فى « هامبورج » ولكنها حدثت فى القاهرة وفى سن الصبا حيث كان التأثير بالغاً وكانت المؤامرات محكمة وتترك « جورج بليك » نفسه تحت تأثير السوفيت تماماً كما لو كان مراهقاً ساذجاً . وفى ١٤ مايو عام ١٩٤٠ بدأت مطاردة جيش هولندا لليهود . فى ذلك الوقت كان « جورج » يقضى العطلة بعيداً عن القاهرة . كما سافرت أمه وشقيقتاه إلى لندن . وعاش جورج فترة من الوقت عند جدته ثم عند عم له فى « ترنسفال » يدعى « أنطون » وبعد أن كان يحلم بأن يصبح مثل أبيه أخذ فى تقليد ابن عمته « هنرى » ودخل المقاومة وطارده رجال الجستابو فى كل مكان ، وهرب وبعد عمل مرهق اتصل بأكثر من مكتب لتزييف الأوراق الشخصية ثم سافر إلى أسبانيا وهو يحمل جواز سفر مزيفاً حيث قبض عليه . ثم أطلق سراحه فى عام ١٩٤٢ بعد اتفاق ودى بين أسبانيا وبريطانيا بشأن اللاجئين . ومنذ ذلك التاريخ فتح أول ملف بانجلترا عن « جورج بليك » وكان الملف عباره عن عشرين سطراً فقط هى بعض البيانات الروتينية .

● والشىء الغريب أن المخابرات الانجليزية لم تربط منذ أول وهله بينه وبين هنرى كوربيل الذى كان مستقراً بالقاهرة والذى يعتبر ضمن الخطرين . وبعد سفر جورج من هامبورج إلى برلين تعلم فن الجاسوسية فى مدرسة « كمبردج » وعلى يد « أنطون كورنيه » رئيس القسم السوفيتى . وفى عام ١٩٤٨ كان معداً تماماً للقيام بأول مهمة جاسوسية .

سافر إلى « ساوزول » وهى إحدى النقط الساخنة للحرب الباردة متحلاً لشخصية نائب قنصل، كما توقف قليلاً بالقاهرة، التى كانت بالنسبة له الجنة الضائعة والحنين إلى السلطان. وحصل على تصريح مؤقت لزيارة قريب له. ولكنه لم يستطع رؤية هذا القريب لأنه كان فى السجن. ولأول مرة لم يلتق « جورج بليك » بأستاذه « هنرى كوربيل ».

أما القاهرة فى عام ١٩٤٨ فاختلفت تماماً عما كانت عليه فى عام ١٩٣٨. فقد بدأت الحرب ضد إسرائيل. والتقى جورج بعبد الرحمن سلطانوف الذى أصبح مستشاراً عاماً واستقر رسمياً بسفارة الاتحاد السوفيتى، وفى نفس القصر الذى كانت تملكه « زاهيدا » والدة « هنرى كوربيل ». والذى باعته بعد موت زوجها حيث عملت فى مكتبة صغيرة تملكها فى أحد شوارع القاهرة وكان يتردد عليها بعض الشيوعيين الشبان لمساعدتها بشراء بعض أدوات الكتابة. وكان « هنرى » بالنسبة لهؤلاء الشبان هو البطل وهو المحرك ضد الانجليز ولم يفطنوا إلى أنه كان يجندهم لصالح وخدمة روسيا. وغادر « جورج بليك » القاهرة هذه المرة مزعزع السلطان بعد أن كشف أمر ابن عمته.

نجح « جورج » فى ساوزول وكان أول من أبلغ عن الهجوم على شمال كوريا عام ١٩٤٩ ولكنه اعتقل فى نفس الوقت مع مساعده فيفيان هولت وألفريد سميل كوبر، والمبشر الايرلندى توماس كيبان، وهربرت لورو من قوات الجيش وفيليب وين من مجلة « الأوبزرفر » وكتب « وين » فى مذكراته يقول إن الجميع تعرضوا لعمليات غسيل المخ إلا « جورج ».

لقد انهالت علينا الضربات ونحن على الأرض. كنا عشرة داخل زنزانة طولها ثلاثة أمتار ومع ذلك كدنا نتجمد من البرد. أما هو فلم تسيطر على تفكيره سوى فكرة واحدة وهى: الهرب وبالرجوع إلى ملفه كانت هناك بعض الصور له وهو فى بكين وموسكو. وقد أطلق لحيته وهو يتوكأ على ذراع أمه. واحتل اسمه وصورته عناوين الصحف اليومية. ثم كانت هناك مجموعات من الخطابات والصور عندما كان يقضى إجازة طويلة بفرنسا ولم يرد بالملفات أى شىء عن « هنرى كوربيل » الذى استقر نهائياً بباريس بعد أن طرد كلية من مصر. وبعد فترة تزوج جورج من سكرتيرة حسناء هى « جليان آلان » التى أنجبت له ثلاثة من الأبناء. وفى عام ١٩٥٦ وأثناء قضاء أجازتهم الأخيرة على ضفاف بحيرة « دى جارد » سألها: « ماذا تقولين إذا أصبحت عميلاً سوفيتياً؟ »

وضحكت الزوجة معتبرة سؤاله مجرد دعابة.

فى عام ١٩٥٥ وأثناء عمليات خطف العملاء فى برلين، كان يقيم فى ٣٦ شارع « بلانتين نال » فى القطاع البريطانى. كان مسئولا عن بحث وتحليل تقارير العملاء الألمان. كما انشغل تماماً فى عام ١٩٥٩ فقد كان يتم الاعداد لمؤتمر جنيف عن ألمانيا. كان جورج يتنقل بالمدينة، فيذهب إلى الأوبرا وإلى المسارح ويتنقل بين ٢٥٠ داراً للسينما وبصحبته مترجمة روسية شابة. كما ذكر البعض أنه شوهد فى شارع ستالين ببرلين الشرقية منتحلاً اسم « ماكس دى لوبه ».

وقد تقرر ارساله فى ذلك الوقت للتدريب الاضافى بالشرق الأوسط وفى مركز الدراسات العربية فى معهد شاملان بالقرب من بيروت. أى على بعد ساعتين فقط من القاهرة حيث تبدأ مغامرة جديدة. وبالفعل وصل جورج فى سبتمبر عام ١٩٦٠.

اعترف عميل ألمانى مزدوج من أصل بولندى يدعى هورست أنتر فى شهر أكتوبر أن « بليك » كان مثله أى عميلاً مزدوجاً..

ولم يشغل ذلك بال المباحث إلا بعد أن قدم « انتر » التفاصيل التى لم تنشر عن المعلومات التى أعطاها « بليك » للروس: أكثر من أربعين عميلاً غربياً، مجموعة من الموالين للغرب كانوا يلتقون دائماً فى محل صغير بألمانيا الشرقية. كما قدم لهم تصميم النفق السرى الذى حفره الغربيون تحت برلين لمراقبة شبكة الاتصالات النيوعية.

وقبل تمام التسليم بعدة أيام وفى عام ١٩٦١ تلقى « جورج » وهو فى بيروت برقية من لندن لاستدعائه لبعض الاجراءات الروتينية. وكان بليك يحب دائماً قضاء عطلة العيد ببيروت. وخشى هارولد ماكميلان وجهاز المخابرات الانجليزى أن يلحق جورج وفى آخر دقيقة بالطائرة ويهرب إلى موسكو، كما فعل من قبل « برجس » و« ماك لين ». ولكن يبدو استقل جورج الطائرة إلى انجلترا حيث قبض عليه وحيث أعطى كل التفاصيل وبالتواريخ والساعات والأيام عن العمليات التى قام بها منذ شهر نوفمبر ١٩٥١ وحتى شهر سبتمبر عام ١٩٥٩..

● بعد انتهاء التحقيق كتبت جريدة « التايز » عنواناً تقول فيه: وأسدل الستار على مشاهد التوتر. والآن وبعد مرور عشر سنوات على هروب « جورج بليك » كتب « شين بورك » الايرلندى الذى تبعه إلى موسكو والذى ساعده على الهرب:

« لقد بدا أكثر صلابة، فريداً فى نوعه. يرقص عارياً أمام المرأة. يردد أنه يحب الحياة من أجل الحياة ».

كما حصلت زوجته على الطلاق فى لندن. أما أمه فتركت منزلها فى « راملات » وهى فى الحادية والسبعين من عمرها. واعتقد الجميع أنها ستلتقى بابنها فى دمشق حيث كان يدير مركزاً نقابياً هناك، ولكنها كانت مجرد إشاعات فقد كان جورج فى موسكو. ويقول البعض إنه أصبح مثل « برجس » و« ماك لين » أى من المترددين على مكان يسمى « نادى الجواسيس المتقاعدين ». أما الانجليز فيهمهم نسيان هذه العملية الخاسرة. فقد ظل ذلك الغموض يقلقهم سنوات طويلة تبدأ بعمليات « ألان نون ماى » وتنتهى بفضيحة « كريستين كيلر » فهذه العمليات لم تكن مشرفة لجهاز المخابرات والمعلومات الانجليزى. وتساءل اللورد « رو كليف » رئيس قسم الأمن الذى تكفل خصيصاً للبحث فى عملية بليك.. عن الدافع الذى كان وراء هذا الجاسوس؟!

وجاء الرد من موسكو وفى عام ١٩٧٠. فقد حصل « بليك » على أعلى امتيازين. حصل على وسام لينين والعلم الأحمر. ولا تمنح هاتان الجائزتان فى روسيا إلا فى وقت الحرب أو للأبطال المدنيين الذين شاركوا فى القتال. وفى حديث له نشر فى نفس اليوم، لم يتحدث « جورج بليك » إلا عن نفوذه وماضيه.

● ولم يبق سوى سؤال واحد. هل ما زال بليك وهنرى كوربيل مرتبطين بعمليات أخرى لغزو العالم الثالث؟ إنها ليست مصادفة أن الذى ساعد « بليك » على الهرب هو الارهابى « شين بورك » الايرلندى وأن ينشغل « هنرى كوربيل » فى نفس الوقت بقلب نظام الحكم بأيرلندا.

●

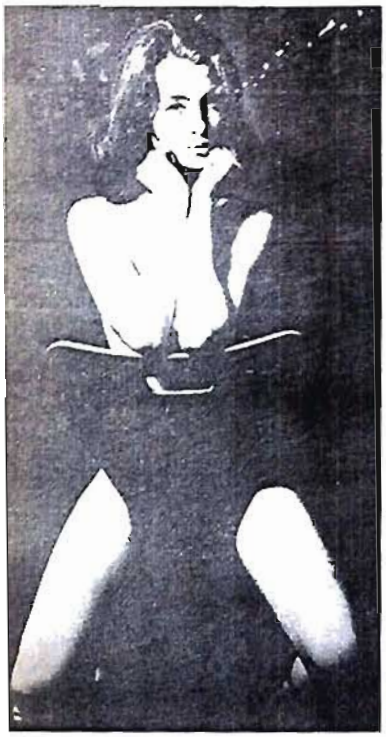

● كريستين كيلر: فضيحة المخابرات الانجليزية

● الملك السابق فاروق تولى الحكم ولكن فى الحقيقة لم تكن له سلطة

● برجس: هروب إلى موسكو